الضّربة التي لم تكن في الحسبان

كيف أصابت "بطّانيّة غزّة" التّكنولوجيا الإسرائيليّة بالعمى؟

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING — ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO — United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx — Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA — LONDON - UK

AMIEF — American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في مشهد تمّ بثّه على مواقع التّواصل الاجتماعيّ من قلب غزّة العزّة، حملت الكاميرات صورة لزقاق من أزقّة غزّة المدّمرة، حيث تتناثر أطلال البيوت المهدّمة كشواهد على قسوة الحصار، وهناك يزحف مقاتل من كتائب القسام بحذر شديد، وفوق رأسه تحوم طائرة إسرائيليّة مسيّرة، عيونها الإلكترونيّة الحادّة تمسح كلّ شبر من الأرض، وكاميراتها الحراريّة تبحث عن أيّة إشارة حياة، وعن أيّ حركة مشبوهة، لكنّ المقاتل لا يركض، ولا يختبئ خلف الجدران المتهدّمة، ولا يبحث عن ملجأ في الأنفاق، ولكنّه يفعل شيئاً أبسط من ذلك، وبشكل يثير الدهشة والعجب، فهو يلفّ نفسه ببطّانية عاديّة، تلك القطعة البسيطة من القماش التي تستخدم عادة للحماية من برد الشتاء الغزاويّ القارس، وفجأة، يختفي....

وهذا لم يكن مشهداً لاختفاءٍ سحريٍّ، بل هو اختفاءٌ تكتيكيٌّ محسوبٌ بدقّة، فالبطّانيّة تغطّي رأسه وكتفيه، وتخفي ملامحه الإنسانيّة الواضحة، وتبدّد إشارات الحرارة المنبعثة من جسده، وفي عين الكاميرا فوقه، لا يعود إنساناً واضح المعالم، بل كتلة غامضة تذوب وسط الرّكام، وظلاًّ غامضاً لا يثير الشّبهة، وشكلاً مبهماً يختلط بالغبار والدّخان والأطلال المنتشرة في كلّ مكان، فتمرّ الطائرة بأجهزتها المتطوّرة وتسجّل..

"لا شيء مريب"..

في الوقت الذي يواصل المقاتل تحرّكه تحت غطاء بطّانيّته السحريّة، فهي حيلة بسيطة، لكنّها أربكت أذكى الطائرات الإسرائيليّة، وجعلت التكنولوجيا عمياء أمام إرادة الإنسان المقاوم....

فما حدث في أزقّة غزّة ليس مجرّد تكتيك عسكريّ ذكيّ، بل ثورة حقيقيّة في فهم الحرب الحديثة وطبيعة المقاومة، ففي عصر تهيمن فيه التّكنولوجيا المتقدّمة على ساحات المعارك - حيث نرى الطائرات المسيّرة تحلّق بكاميرات حراريّة قادرة على تمييز درجة حرارة الجسم البشريّ من مسافات شاسعة - تمكّنت المقاومة الفلسطينيّة من إيجاد حلّ بسيط وعبقريّ ألا وهو البطّانيّة...

فالتّكتيك يقوم على مبدأ فعاليّته كانت في بساطته، فالبطّانيّة تعمل على عدّة مستويات، فتغطية الرأس والكتفين، كانا بسبب كونهما أكثر أجزاء الجسم وضوحاً في الصور الجويّة، ففيه إخفاء للشّكل الإنسانيّ المميّز الذي تدرّبت خوارزميّات الطائرات على التّعرّف عليه، وهناك تشتيت إشارات الحرارة وتوزيعها بشكل غير منتظم، ممّا يجعل الجسم البشريّ يبدو في أجهزة الاستشعار الحراريّ وكأنّه مجرّد كتلة عادية من الأنقاض أو الحطام، وهناك الذوبان البصري وسط البيئة المحيطة، إذ تتحوّل الكتلة البشريّة الواضحة إلى مجرّد ظلّ غامض يختلط بطبيعة المكان المدمّر، فهذا التّكتيك البسيط حوّل كلّ بطّانيّة في غزّة إلى درع وهميّ، وأداة بقاء تمنح المقاتل فرصة للتّحرّك تحت أعين الكاميرات دون أنْ يُكتشف، فهي تجسيد حيّ لمقولة:

"العبقريّة في البساطة"...

وهذا الابتكار التّكتيكيّ لا يمكن فهمه بمعزل عن السّياق الإنسانيّ والاجتماعيّ الذي نشأ فيه.. فغزّة، هذا القطاع الصغير الذي يضمّ أكثر من مليونيّ إنسان، محاصر منذ أكثر من سبعة عشر عاماً، بحصار خانق يمنع دخول أبسط المواد، من الإسمنت إلى الأدوية، من الوقود إلى المواد الغذائيّة، غزّة التي تحوّلت إلى سجن كبير، تشحّ فيه الإمكانيّات وتنعدم الموارد، فلم يكن أمام المقاومة في هذه الظّروف أيّ خيار سوى الإبداع، وهنا تكمن العبقريّة الحقيقيّة التي تجلّت في القدرة على تحويل أبسط الأشياء إلى أدوات مقاومة فعّالة....

فإذا بالبطّانيّة، هذا الشيء البسيط الذي يوجد في كلّ بيت غزاويّ، قد تحوّلت إلى سلاح إستراتيجيّ، وليس سلاحاً ليقتل إنّما سلاحٌ ليحمي ويمنح الحياة بدل أخذها، فهي أداة بقاء بأوسع ما تحمله الكلمة من معاني....

فهذا التحوّل من الشيء العاديّ إلى الأداة الإستراتيجيّة يعكس حقيقة فلسفيّة عميقة عن الطبيعة البشريّة، الإنسان، فعندما يواجه تحدّيات وجوديّة، يمتلك قدرة غير اعتياديّة على رؤية الإمكانيّات الكامنة في أبسط الأشياء، فالمعاناة، رغم قسوتها، تشحذ الخيال وتولّد الإبداع وتدفع العقل البشريّ لاستكشاف حلول لم يكن يتخيّلها في ظروف عادية....

فما يحدث في غزّة يذكّرنا بتاريخ طويل من الإبداع العربيّ في مواجهة التّحدّيات، فمنذ القدم، اشتهر العقل العربيّ بقدرته على إيجاد حلول مبتكرة للمشاكل المعقّدة، من اختراع الجبر إلى تطوير علم البصريّات، وابتكار أنظمة الريّ إلى تطوير فنون الملاحة، وها هي "بطّانيّة غزّة" تنتمي إلى هذا التقليد العريق من الإبداع العربيّ، لكنّها تحمل خصوصيّة معاصرة مهمّة، فهي تمثّل "ذكاء الشارع" في أنقى صوره، ذلك الذّكاء العمليّ الذي لا يحتاج إلى مختبرات متطوّرة أو إمكانيّات هائلة، بل يعتمد على الملاحظة الدقيقة والفهم العميق للواقع والقدرة على التّكيّف السّريع....

فمقاتلو القسام لم يدرسوا في أكاديميّات عسكرية مرموقة، ولم يتدرّبوا على أحدث التقنيات العسكريّة، لكنّهم فهموا شيئاً جوهرياً، ألا وهو أنّ الحرب الحديثة ليست صراعاً بين أسلحة، بل هي صراع بين عقول، والعقل المقاوم المشحون بالإرادة والمدفوع بطلبه للشهادة، بعد أنْ فقد كلّ شيء فلم يبق شيء يفقده أو يأسف عليه، فبات لديه دافعيّة وشغف أصيل للجهاد والاستشهاد، فأصبح قادراً على إيجاد ثغرات في أعقد الأنظمة وأكثرها تطوّراً وتقنية...وهذا التفكير الإبداعي لا يقتصر على الجانب العسكريّ فحسب، ففي كلّ جانب من جوانب الحياة في غزّة، نرى أمثلة مدهشة على هذا النوع من الإبداع، فنجد مولّدات الكهرباء البدائيّة المصنوعة من قطع غيار مستعملة، ووسائل نقل معدّلة للتأقلم مع الحصار، وغيرها الكثير ممّا جادت به أفكار هؤلاء المقاومين الأشاوس....

وما انتشار قصّة "بطّانية غزة" على منصّات التّواصل الاجتماعيّ، إلاّ انعكاس لبعد مهمّ آخر من هذه الظاهرة، ألا وهو التعبير عن حاجة إنسانيّة عميقة للأمل والفخر، ففي عالم عربيّ يشعر كثيرون فيه بالإحباط من التراجع التكنولوجيّ والعلميّ، تأتي قصّة البطّانيّة كرسالة أمل لتثبت أنّ العبقريّة العربيّة لا تزال موجودة، وأنّ الإبداع لا يحتاج بالضرورة إلى إمكانيّات هائلة، بل إلى عقل متفتّح وإرادة قويّة، فالتّعليقات المتنوّعة على هذا المحتوى تعكس هذا التنوّع في ردود الفعل، والبعض أبدى إعجاباً صريحاً بالذّكاء التكتيكيّ، والبعض الآخر عبّر عن فخره بالإبداع الفلسطينيّ، ولكنْ كان هناك أيضاً أصوات حذرة تنبّه من تقديم معلومات مجانيّة للعدوّ الإسرائيليّ، وهذا التحذير، رغم منطقيّته، يطرح سؤالاً فلسفياً مهماً:

أيجب إخفاء الإبداع والعبقريّة خوفاً من استفادة العدوّ منها؟

أم أنّ الكشف عن هذا الإبداع يحمل قيمة معنويّة ونفسيّة تفوق مخاطره الأمنيّة؟

فعلى مستوى أعمق، تتجاوز "بطّانيّة غزّة" كونها مجرّد تكتيك عسكريّ لتصبح استعارة قويّة للمقاومة نفسها، فالبطّانيّة، بدفئها وبساطتها وحميميّتها، تمثّل الجانب الإنسانيّ من المقاومة، فهي ليست مجرّد أداة قتال، إنّما رمز للحماية والرعاية والحبّ...فهذا البُعد الرمزيّ هامّ جداً لفهم طبيعة المقاومة الفلسطينية، فهي مقاومة لا تنبع من الكراهية فحسب، بل من الحبّ العميق للأرض والهوية والحياة، والبطّانيّة التي تدفئ الطفل الغزاويّ في ليالي الشتاء الباردة هي ذاتها التي تحمي المقاتل من عيون الطائرات الإسرائيليّة، وهذا التّداخل بين الحياة المدنيّة والمقاومة يعكس طبيعة الصراع في فلسطين، إذ لا يمكن فصل الصراع الشخصي عن السياسي، ولا الصراع الإنسانيّ عن العسكريّ...

وبعد،

فإنّ "بطّانيّة غزّة" تحمل درساً للمستقبل، درساً موجّهاً للعالم كلّه، ففي عصر تهيمن فيه التكنولوجيا المتقدّمة والذكاء الاصطناعيّ، تأتي هذه التجربة لتذكّرنا بأنّ القوّة الحقيقيّة لا تكمن فقط في التطوّر التكنولوجيّ، بل في القدرة على التكيّف والإبداع والتفكير خارج الصندوق، فكلّ تكنولوجيا، مهما بلغت درجة تطوّرها، لها نقاط ضعف يمكن استغلالها بالذكاء والإبداع، فالطائرات الإسرائيليّة المسيّرة، على الرغم من تطوّرها التكنولوجي الهائل، إلاّ أنّها لم تكن مصمّمة للتّعامل مع هذا النوع من التكتيكات البسيطة والمبتكر، فهذا الأمر جاء ليفتح المجال أمام تساؤلات مهمّة حول مستقبل الحروب والصراعات، وهل سنشهد المزيد من هذا النوع من الإبداعات البسيطة والفعّالة؟ وكيف ستتطوّر أساليب المقاومة والحرب غير المتماثلة في المستقبل؟

ففي النهاية، ستبقى قصة "بطّانيّة غزّة" شاهداً على عبقريّة الرّوح الإنسانيّة في مواجهة أقسى الظروف، فهي قصّة تؤكّد أنّ الإبداع لا يحتاج إلى إمكانيّات هائلة أو تكنولوجيا متطورة، بل إلى عقل متفتّح وإرادة قوية وقدرة على رؤية الإمكانيات الكامنة في أبسط الأشياء.

وهذه القصّة تذكّرنا بأنّ المقاومة الحقيقيّة لا تكمن فقط في حمل السلاح، بل في رفض الاستسلام والإصرار على الإبداع والتجديد والبحث الدائم عن طرق جديدة للمقاومة، فبطّانيّة غزة في بساطتها، تحوّلت إلى..

رمز للأمل والإبداع والمقاومة، وتغيّر معها أساس وجودها، فبدل أنْ تكون رمزاً للدّفء والحماية في الحياة الطبيعيّة، أصبحت في غزّة، تحت القصف، رمزاً للحماية من الموت، وهذا يعطيها بعداً لتعميق المأساة وطبقة أخرى لتكون شاهدة على قساوة المشاهد، فهي بذلك تحفر وجوداً لها لا تزول آثاره ولا تندثر معالمه،

ورمزٍ لمعنى رفض الاستسلام، وإلغائه من قاموس غزّة، فلا كان ولم يكن ولن يكون أبداً، فهي رمز للنصر بالإرادة، أو الموت بشموخ بأرواح عالية...

وهي رمز لصرخة زجر لكلّ من يتجرأ على عداوة هذه الأمّة، فهو لا يحارب بعداوته جيلاً واحداً فحسب، بل سيواجه إرثاً من الكفاح يضرب بجذروه عمق الزمن...

وهي أثر ورمز باقٍ في ذاكرة التّاريخ، كدليل على أنّ العقل البشريّ، عندما يُدفع بالإرادة والحاجة للبقاء، سيكون قادراً على صنع المعجزات من أبسط الأشياء....

فهي صرخة من دماء الشهداء في وجدان الأجيال القادمة: "هذه أرضنا، عزّنا... فانهضوا واستردّوها!""